عن كتــاب إشكاليــة الذوق الفنــي

http://www.alnabanews.com/node/8242

بقلم: د.عبد القادر فيدوح

حين جاءني الأستاذ خليفة بن عربيّ، قبل أن يُقدِم على اختيار موضوع بحثه لإكمال متطلّبات الماجستير، طلب منّي أن استمع منه إلى ما كان يشغل باله، وما يبديه من إعجاب بالأديب العملاق «محمود شاكر»، وقد كان شغوفا بمعزّته لهذا الأديب الفذّ، فما كان منّي إلاّ أن تأنّيت في أمره، ولم أتعجّل في الرّدّ عليه حينها، وبعد أن استعنت بما انتفعت به من هذا الجِهْبِذ النَّقّـّاد، ترفَّقْت عليه من هذا الأديب المجَلجَل، المتناهي في الظّفر، كالغواص على الدّرر في قعر تاريخنا المجيد، وهو إلى جانب ذلك يمثّل شامة مائزة في أدبنا العربيّ الحديث. وستظلّ آراؤه المبثوثة في ثنايا لآلئه تشعّ علينا بمواقفها المتألّقة مهما طال الزّمن، ومحلّ إعجاب وافتخار لثقافتنا العربيّة. لقد كان محمود شاكر يمثّل قيمة أدبيّة حرصت على صناعة جيل يخدم تراثنا، ويحميه من كلّ أذى، بعد أن جعل من بيته منتدى فكريّا يأويه محبو المعرفة، والتّراث على وجه الخصوص. وإذا كان لابدّ لنا من رأي منصف في هذا المقام فهو اعتراف بجميل ما قدّمه محمود شاكر للثّقافة العربيّة من ثراء أغْنَى الأجيالَ اللاّحقة عن مشقّة البحث، والفحص، في أعماق التّراث العربيّ، والكشف عن أدبه الماجد، من خلال ما قام به من تحقيقات على وجه الخصوص. وقد برهنت دقّته في التّحقيق، وإتقانه المحض في التّنقيب، على عظمة تَلَفُّتِه إلى قيمة ما في تراثنا من خيرات حين كان يوجِّه النّصّ، ويُبِيّن معناه، قبل أن يكتب على غلاف ما يحقّقه « قرأه وشرحه « دلالة على ما ميّزه من غيره من المحقّقين.

أمام هذه المكانة المتميّزة لهذا الأديب الفذّ، وجد الأستاذ خليفة بن عربيّ طريقه في يَمٍّ من الذّخائر، وهو يعلم أنّه لن يُدْرَكَ قَعْرُه ولا شَطَّاه، وخشية من أن يغرق في فيض هذا اليمِّ، ويغطّيه تردُّدُ أمواجِه، وحتى يكون مُيمَّماً، ظافرا بعطائه، اهتدينا إلى أن يتناول من هذه اللُّجَّة، ذائقةً ممّا كان يتذوّقه أديبنا، فكان هذا البحث في صيغته: «الذّوق الفنيّ عند محمود شاكر « بوصف ـ هذه الذّائقة ـ ظاهرة جماليّة طُرحت في وقتها على أنّها إشكاليّة لم يألفها النّقّاد الذين استهوتهم المعارك الأدبيّة، هذه المعارك الّتي أفادته في كشف ما خفي منها في تراثنا الأدبيّ من حيث الجوانب الفنّيّة، وقد أفصح شاكر عن ذلك حين كان يتعامل مع التّراث على أنّه إبانة، بإفصاح ما فيه من أحاسيس معنوية، يصدرها الشّاعر على وجه الخصوص، سواء ما ارتبط منها

بانشراح النّفس أو انقباضها، فتُمثِّل مادّة خصبة، تعدّ قيمة فنّيّة من آثار العاطفة، تحتوي على ذوق فنّيّ رفيع، وقد أشار إلى ذلك، كما جاء في قوله ذات مرّة : «وشيئا فشيئا انفتح لي الباب على مصراعيه، فرأيت عجبا من العجب، وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خفيّة كالهمس، ومساجلات ناطقة جهيرة الصّوت، غير أن جميعها إبانة صادقة عن الأنفس والعقول.«

لقد انطلق الباحث في تماثله مع قيمة الذّوق الفنّيّ في نهج محمود شاكر الّذي نظر إلى التّراث بمنظور الشّموليّة في الرّؤية، والسّعة في الاطّلاع، والتآلف مع القراءة، والتّألّق في الحسّ الفطريّ، والانبعاث في نور المعرفة، والتّأنّي في إصدار الأحكام، بخاصّة حين منعته الهيبة أن يختلف مع أستاذه طه حسين في مواضع شتّى، إلى جانب هذا كان محقّقا بارعا من صدر واسع، وإبانة ساطعة، أو كما وصفه العقّاد بأنّه «المحقّق الفنّان»، في وقت كان محمود شاكر لا يعدُّ نفسه كذلك، بقدر ما كان يحبّ أن يوصف بـ «القارئِ الحَفِيِّ»، و«الشّارحِ الوَعِيِّ» لمتن اللّغة العربيّة وآدابها؛ الأمر الذي أوصله إلى نتائج في دراساته أذهلت الأدباء والمفكّرين، كان مصدرها ما استنتجه من ذائقة فنيّة رفيعة بخاصّة في شعر المتنبّيّ.